

رفاعة رافع الطوطوي : المفكر والمعلم . . . بالترجمة

اعتذار ووعيد

الابهار والمخيلة والاسنة العجماء ، يزعمونك جدا لهم
وانهم احفادك ، يحصلون للجهل والقهر والادعاء وفقر
العقول والاحساس وثيقة مزورة يبرزونها للبسطاء تقول
ان هذا هو تراثك .

معذرة ايها الجد الجليل ، فان ميراثك ضاع . وها
نحن نبدا احياءنا لذكراك بالاعتراف لك : اننا لم نحسن
الانتفاع بما تركت لنا ، ولم نحسن العمل بما قضيت
زهرة العمر الجميل تتعلمه بالجهد الشاق وتعلمه لنا
بجهد اكثر مشقة . اضعنا ايها الجد فضائل انت
جسدتها بحياتك ، وكانت تجعل الكدح من اجل المعرفة
والتمسك بمسئوليتها متعة الدنيا ، وشرف العارفين .
وكانت تجعل المعرفة كنزا مشاعا ، على مالكة ان يزيده
لكي يمنحه هبة للطالبيين ، ولكي يذهب به لمن يحتاجونه
ولا يعرفون بوجوده ، وكانت - فضائلك - تجعل المعرفة
والحرية توأمين وكانت تجعل المعرفة دون ممارسة لاكتسابها ،
ولتطبيقها ، ولتعديلها وتطويرها ، كأننا مسخا لا كيان
له ولا مستقبل ، وكانت تدعو لان يكون « الوطن » ملكا
مشتركا بيننا ، بنينه بالفكر والعمل والمصنع ، فكانت تجعل
المعرفة دون احساس بمن ستوضع هذه المعرفة في خدمتهم ،
ودون ان تبدأ من البحث عن تلبية احتياجاتهم لكي تعود
اليهم في النهاية فينتفعوا بها حقا ، دون ذلك كانت
فضائلك تجعل المعرفة زخرفا لا حاجة اليه وكاننا لقيطا
لا اصل له ، وقضولا زائدا يتلكأ على حافة التاريخ
والوطن الى ان يجرقه تيار الواقع دون اسف .

سيرة حياة المعرفة والحرية

في شهر اكتوبر من عام ١٨٠١ ، خرجت من مصر
حملة نابليون بونابرت ، اول حملة استعمارية على الشرق

معذرة ايها الجد الجليل : ها هم يحتفلون بذكراك
وكانهم يرفعونك شعارا في مهرجان . ينزعون عن رايتك
شارة الحرية وعلامة العقل ، ويخفون وجهك الشجاع
وقلبك عاشق الحياة والحقيقة ، لكي يعطوك قناع المهارة
وحدها او مجرد الذكاء . ورغم هذا يجعلونك مجرد اعجوبة
لكي تبدو فلتة غير قابلة للاستمرار ، فتصبح تاريخا فقط ،
انقضى اوانه مع الماضي المندثر ، ويتخذونك ايضا لهم
قناعا يتجملون به .

احتفالهم يجعلك تبدو كنجم من نجوم السيما ،
وسيخالك الناس - لانهم اخفوا عن الناس حقيقتك -
واحد مثل الذين يحبون ان تظهر صورهم كل يوم في
كل مكان . . سيعتقدون انك كنت تحب ان تخايل
الناس ، لا ان تشير خيالهم ، وان تبهرهم لا ان تربى عقولهم ،
وان تسليهم لا ان تعلمهم ، وان تزين لهم ما هم فيه من
جهل وقهر وتخلف وفقر ، لا ان تأخذ بأيديهم لتدلهم على
مصادر النور والوعي ، وعلى ما يمتلكونه في داخلهم من
قدرة وقوة ، وما ينبغي ان يمجده في العقل والحرية ،
وفي ضرورة المعرفة والكبرياء والعمل المنظم المشترك ، وما
ينبغي ان يداقوا عنه في العدل والاخاء والمساواة ، حتى
يستطيعوا ان يغيروا عالمهم ، وان يستمتعوا فيه المتعة
الجديرة بالانسان . وسيظن الناس انك كنت تريدنا ان
نبقى على ما وعدتنا عليه ، او ان نصل الى ما وصلنا
بالفعل اليه ، وسيظنون ان هؤلاء المحتفلين بك هم
احفادك الشرعيون حقا ، وانهم بما يفعلون ويقولون ،
يحققون وصاياك ، ويسيروا على هديك .

معذرة ايها الجد الجليل ! واسمح لنا نحن ان ندعيك
فنسب انفسنا اليك ، حتى لا نترك فريسة لاصحاب

العوامل لكي تفرض على مصر ، وعلى الوطن العربي كله ستارا من التخلف والفساد العقلي والاخلاقي اصبح فيما بعد مضرب الامثال . والقصاص التي تروى عن ذلك ليست لها نهاية ، كما ان ذلك التخلف قد احتوى في مضمونه نسيانا كاملا للتراث الحضاري والثقافي العظيم الذي ازدهر حتى قبل وصول « الاسيويين » بعشرات قليلة من السنين . ان علماء الازهر الذين ظنوا ان العلماء الفرنسيين يستخدمون نوعا من السحر في معامل الكيمياء لكي يخدعوه ، واقر مؤرخهم الكبير « عبدالرحمن الجبرتي » بانهم يأتون اعمالا : « لا تسعها عقول امثالنا » هؤلاء العلماء كانوا جديرين بان يظنوا نفس الظنون بأسلافهم العظماء من الفلاسفة والعلماء العرب ، من امثال الفارابي وابن سينا او الكندي او ابن الهيثم او البيروني . . هذا اذا اتيح لهم ان يسمعوا عن تلك الاسماء .

ونحن الان قد نستخدم لفة السجع واثورية اللفظية لكي نصنع بعض الفكاهات . . ولكن هذه اللفة كانت هي اللفة الوحيدة التي يمكن ان يعبر بها من شاء الكتابة من هؤلاء العلماء . ولم تكن هذه اللفة اتفقيرة قد استخدمت ابدا ، منذ نحو الف سنة للتعبير عن شيء من العلوم الطبيعية ، ولا الفلسفة العقلية ، ولا العلوم البحتة - كالرياضة - ولا العلوم النظرية - كالفلك والهندسة . ونظرة واحدة الى المجلدات الاولى من اي كتاب في التاريخ وضع في هذه السنوات الالف ، تكشف عن التصور الخرافي الذي نقله المؤرخون من كتابات اليهود وغيرهم ، ومن بقايا ما عرفوه من حكايات شعبية عن تاريخ شعبهم والشعوب المجاورة . وبعد مئة سنة فقط من موت المؤرخ وعالم الاجتماع الكبير عبدالرحمن بن خلدون . . وضع - عالم - ازهري كتابا لتعليم امير من المماليك في مادة - وصف العالم - او الجغرافيا ، ولكن هذا الكتاب يصلح لان يكون دائرة معارف لكل الخرافات القديمة عن شكل كوكبنا وما يعيش فيه من احياء ، ولا يكاد وصف مصر نفسها فيه يكون صحيحا .

اما عن ادوات الحياة ، وادوات الموت ، فيكفي ان نتذكر ان الجبرتي قال ان الناس الذين تجمعوا لمشاهدة القتال بين الفرنسيين والمماليك في انبابة : « لما عابنوا القنبر - اي قذائف المدافع - ولم يكونوا عابنوه من قبل ، صاحوا : يا خفي الالطاف نجنا مما نخاف ، وان الجبرتي ايضا ابدي اعجاباه بالعربة الصغيرة ذات العجلة الواحدة التي صنعها الفرنسيون لتسهيل نقل الاتربة . وقال انها - معجزة الناس الفرنسية - وانها - شيء لطيف . .

ولكن هذا العالم كان قد اهتز هزة عنيفة فسي السنيتين السابقتين على مولد رفاة . وان هؤلاء الناس الذين استنجدوا بخفي الالطاف حينما عابنوا القنبر - سبكوا شبابيك الجوامع والبيوت ، بعد عام واحد لكسي يصنعوا مدافع وقنابل ليمنعوا كليبر من العودة للقاهرة

ترغم على الانسحاب من « مستعمرتها » المسلوبة ، دون شروط . واخذت الحملة معها في صندوق من الرصاص جثة كليبر ، خليفة نابليون في قيادة الحملة وحكم المستعمرة ، واول جنرال استعماري تقدمه يد الثورة الوطنية في الشرق . واخذت الحملة ايضا كتاب « وصف مصر » الذي وضعه علماءها ، بينما سلمت للانجليز « حجر رشيد » الذي سيؤدي فك طلاسمه بعد سنوات الى ازالة ستار الغموض والجهل عن اعظم واعرق حضارات الانسان القديم . ولكن الحملة تركت وراءها روح المقاومة التي اثارتهما والثقة في النفس واكتشاف الذات بعد قرون الاستسلام والخنوع والضياع ، كما تركت الحملة وراءها عددا من الرجال انذين صدمهم التفوق الحضاري الذي كانت تمثله فابقظ التحدي عقولهم . وبعد ذلك بايام ، دخل محمد علي القاهرة ، ضمن جيش اعادة السيطرة العثمانية ، لكي يبدأ مغامرته انكبسرى بهدف اعادة الروح الى سلطنة العثمانيين وهي المفامرة التي ادت ، على العكس ، الى اعادة الروح لمصر نفسها وللعالم العربي .

ولكن في منتصف ذلك الشهر نفسه ، ولد رفاة الطهطاوي ، في بلدة طهطا من قلب صعيد مصر . ولم يكن لولادته يومذاك مفزى ، الا انه ولد في البدة التي اغرقته بنادق اهلها القديمة سفينة القيادة لحملة فتح الصعيد التي ارسلها نابليون من القاهرة ، فلم تستطع ابدا ان تزعم انها فتحت . ولكن ولادته رغم ذلك كانت هي ثالث الاحداث في ذلك الشهر التي رسمت البداية لتاريخ مصر الحديث . بل ربما كانت ولادته ، هي الحدث الاكثـر اهمية ، اذا نظرنا الى التاريخ بحثا عن اعماقه الحقيقية واساسه . فان العمل الذي انجزه الصبي الصعيدى فيما بعد هو الذي اعطى المعنى الايجابي للحدثين الاولين ، فقد كان على شعب مصر ، الذي دفع الثمن كله ان يكون هو الذي يصنع بجهد ذلك المعنى ، وان يكون هو الذي يجسده .

يصعب علينا الان بالفعل ان نتخيل نوع العالم الذي جاءه رفاة الصغير يوم مولده . كانت قد مرت ثمانية قرون تقريبا منذ بدأت سيطرة الاجناس الاسيوية ، المتخلفة حضاريا وثقافيا ، على مصر والوطن العربي : من الاكراد والشركس والتركماني والمغول والأتراك . جاءوا قيادة عسكريين ، ومماليك وغزاة فاتحين . وكانوا محاربيين عظماء ، ولكنهم كانوا ايضا اصحاب تخلف حضاري وثقافي عريق . وبحكم سيطرتهم السياسية القائمة على القهر ، وبحكم غربتهم عن لغة الثقافة العربية ووصولهم الى السيطرة دون سند اولي من « مؤسسات » هذه الثقافة - الا الاثنايد الشكلية - وبحكم قسوتهم الاصلية وقسوة النظام الاجتماعي السائد ، فقد ترابطت هذه

ويصبح رفاة ،الازهري الذكي ، تلميذ حسن العطار الذي فتحت افاق خياله وعقله باحاديث استاذة عن حضارة الغرب، يصبح موظفا في الدولة الجديدة ، اماما وواعظا في احدى وحدات الجيش الجديد . ومن هناك تبدأ رحلة الخلق الجديد .

لقد كان من الممكن ان يعود رفاة الطهطاوي من باريس الى القاهرة مثلما ذهب ، مجرد امام وواعظ في احدى وحدات الجيش ، وكان يمكن ان يعود ، حتى بعد انضمامه الى البعثة كدارس وليس كمجرد امام وواعظ ، كواحد منها ، وواحد من الذين درسوا معه ومن بعده في عواصم اوروبا، فيتحول الى مجرد اداة تكتيكية متوسطة الاعداد ، تؤدي خدمة معينة لجيش محمد علي ودولته ثم تنتهي مثلما انتهت دولة محمد علي وانتهى جيشه بعد هزيمته امام القوى الاوروبية التي اقزعتها تقدمه فاتحدت ضده وضد مصر، او ضد عمله على انعاش السلطنة العثمانية في الحقيقة .

ولكن رفاة ، يقدم لنا نموذجا مثاليا للدور الذي يمكن ان تلعبه العبقرية الفردية في التاريخ : العبقرية التي تكتشف المفزى الحقيقي لاحداث عصرها وتيار تلك الاحداث ، وتكتشف واجبها في استخلاص كل ما هو ممكن من ذلك التيار لصالح قوى التقدم الحقيقي والاصيلة .

لقد أنتهت « اسطورة » محمد علي بهزيمته واجباره على قبول شروط اوروبا وباشوات السلطنة المتواطئين ضده ، وجاء بعده وبعد موت ابنه ابراهيم باشا ، حفيده الخديو عباس ، صورة من الولاة القدماء تخلفا جهلا وقسوة وغباء وحرصا على التخلف والجهل والغبابة ، وتغلق مدرسة اللسن وكل ما انشأه رفاة وتلامذته من المدارس ومؤسسات الدولة المتمدينة التي تحابلوا لخلقها مستفيدين من طموح محمد علي، ومن الضرورات التي خلقها وفرضها على الدولة وعلى المجتمع كله ذلك الطموح .. وينفى رفاة الى السودان .

فكيف كان يمكن ان تبدو اسطورة محمد علي ، الا لونا من الذكريات يتبادلها المشايخ والموظفون والضباط القدماء المرحون من الجيش المتضائل .. لولا الكتب الالف التي كان رفاة وتلامذته قد نقلوها الى العربية في كل الفنون والعلوم وطبعوها ، فوزعت بين مئات البيوت والوف الايدي ..

ولم يعد في وسع الخديو المتخلف القبي لا ان « يفلقها » كما اغلق مدارس رفاة ، ولا ان ينفيها مثلما نفى المعلم الاول الذي اختارها بنفسه واشرف على ترجمتها ، وراجع الكثير منها ، وتلقى بيديه اول نسخة منها جميعا طوال سبعة عشر عاما ؟ ويتكرر نفس الموقف اثناء سنوات تحرر الوالي سعيد الذي جاء بعد عباس ،

في ثورتها الثانية ، ونظموا اول مقاومة وطنية مسلحة وسرية ضد السلطة الاستعمارية انتهت بقتل كليبر نفسه بعد ايام ، واستمرت لكي تعزل ولاة السلطان الذين جاؤوا من الاستانة واحدا بعد الاخر وارغمت السلطان بالثورة على تعيين الوالي الذي ارادته قيادة المقاومة من نفس مشايخ الازهر الذين سحرتهم معامل الكيمياء واستصفروا عقولهم امامها قبل عامين اثنين فقط .

كان بعض هؤلاء المشايخ قد اكتشف معنى الحرية ومعنى ان تحكم الامة نفسها بنفسها ، ومعنى ان تكون الامة منظمة تدافع عن نفسها بالسلاح . وقد تكرر هذا الدفاع ايام حملة فريزر في رشيد والاسكندرية . وتحت نفس القيادة التي شجعت محمد علي لكي يقاوم الغزوة الانجليزية ولا يهرب كما فعل المماليك . واكتشف بعض المشايخ الاخرين قيمة العلم والحضارة . وهؤلاء هم الذين ارتبط بهم رفاة الشاب حينما وصل الى القاهرة لكي يدرس في الازهر وهو في السادسة عشرة من عمره، فقيرا يحفظ القرآن وبعض كتب شروح النحو والبلاغة والفقه .

وفي القاهرة يكتشف شيخه الكبير ، وشيخ الازهر فيما بعد ، حسن العطار الذي كان يجمع في بيته المع تلاميذه لكي يتباحثوا فيما عرفوه من علوم الفرنسيين ، واسباب تفوقهم الظاهر على المماليك ، ولعلمهم بالعرفه والنظام والنظافة ، واكتشف الشيخ الكبير موهبة تلميذه الشاب . وبينما كان عقل الشاب يتفتح امام ما يسمعه، كانت الدولة توطد اركانها . فقد اباد محمد علي بقايا المماليك وقضى على اسس النظام الاقتصادي والاداري القديم . واكتشف ان باشوات الاستانة سيعملون على خلعهم حتى لا يخلق مركزا قويا ينافسهم من القاهرة ، وقرر ان - جيشا قويا - هو ما يمكن ان يحميه . وبمجيء عدد من ضباط جيش نابليون المهزوم في وتوتروا ، وعدد من الاقتصاديين والسياسيين اتباع - سان سايمون - الاشتراكي الخيالي الفرنسي ، حصل طموح محمد علي، على الافكار العلمية اللازمة لتجسيد خياله - وهو كعسكري لا بد ان يفكر في ان بناء الجيش يمكن ان يكون النواة التي ينبغي ان يشيد فوقها وحولها بناء الدولة كلها . ان جيشا حديثا يحتاج الى ادارة وصناعة وعلوم ومدارس واقتصاد حديث ، ولا يمكن ان تنتج مؤسسات متخلفة ، وبذلك بدأ تجنيد الشباب للجيش . وارسل افراد فلال لتلقي العلوم اللازمة لتوسيع هذا الجيش وتغذيته بما يلزمه وتفذية الدولة التي ستنتفك عليه وترسله في الحروب المطلوبة منها ، او الحروب التي ستفرض عليها .

ويكتشف رفاة ، مع الفقر واحتياجه للرزق المنتظم الذي لا يتيح التدريس في الازهر ، يكتشف اهمية الالتحاق بوظيفة في هذه المؤسسة الجديدة التي ستبنيها الدولة ، والتي ستبني هي الدولة بدورها .

ثم اثناء حكم اسماعيل ، حتى بلغت تلك الكتب اكثر من العيسن .

فيمنما كان محمد علي يحلم بالامبراطورية . وبكرسي الصدر الاعظم في الاستانة ، ويحصي النفود التي جمعها جياته بالسياط من فلاحى مصر وتجارها ، وبينما كان يظن ان دولته . . ومن اكبر موظفيها رفاعة نفسه - لا عمل لها الا تصنيع الاسلحة والجنود وجمع النفود . . كان رفاعة يضع الاساس لاستمرار تطور مصر نفسها وبنائها الحضاري الحديث كله . . بصرف النظر عن مصير هذه المفامرة التي ما كان العصر الاستعماري يقبلها في المنطقة التي تمثل محور الارتكاز لاستراتيجية الدول العظمى طوال اقرن التاسع عشر ، لم يكن محور حلم الباشا هو مصر ، وانما السلطنة العثمانية التي كان التاريخ قد حكم عليها بالزوال ، ولم يكن يبقياها الا منطبق توازن القوى في وسط اعصر الاستعماري ، ولم يكن هم الباشا عظمة الاسلام وانما مجده الشخصي . . اما الشيخ المعلم فكان محور حلمه هو مصر في المستقبل لانه تفرغ لتعليمها ولغرس البذور التي لا تموت ولا تتحكم فيها اية معاهدات دولية ولا اية نهايات لمصار افراد بعينهم ، وكان همه هو المصريون وحريةهم ورخاؤهم واستنارتهم وحكمهم لانفسهم وحصولهم على حياة جديدة بالبشر ، يصنعونها بانفسهم .

كان يمكن في باريس ان يتعلم اللغة وان يتقن الترجمة ، وان يكتفي بترجمة نصوص الكتب المدرسية التي ستلقى في الفنون العسكرية على ضباط وجنود الجيش طبقا لخطة محمد علي وتصور رجاله عن وظيفة هذه البعثة التعليمية والبعثات المشابهة . . ولكن ها هو رفاعة الشاب يحرق ارض المعرفة كلها لكي يعد نفسه للمهمة التي قرر ان يتولاها ، والتي رأى ان التاريخ نفسه يؤذن بإمكانية تحقيقها : مهمة بعث الحياة في عقل هذه الامة ووجودها اعتمادا على اصولها بالذات ، وعلى اساس بث الروح الحية في الاداة الاساسية لمصنع الحضارة واستيعابها وهي : اللغة ، حتى تمتلك الامة في لفتها اسرار تلك الحضارة الحديثة واوعيتها وما تحويه .

وفي يقيني ان المعلم الاول ، كان واعيا منذ البداية بما يفعله ، وبما يريد انجازه ، ربما نبه احد السى ضرورة ان يهتم بكل قروع المعرفة حتى يصبح « مترجما » يترجم كل شيء الى لفته العربية . ولكن من المؤكد انه هو الذي اختار قروع المعرفة التي يركز اهتمامه عليها . والكتب التي سيسرع في ترجمتها للاستفادة المباشرة بمادتها ، ولتطويع اللغة العربية - بمفرداتها وتراكيبها - من اجل ان تصبح قادرة على استيعاب هذه المادة وما يترتب عليها حتما من افكار . لقد طلب اليه استاذة الشيخ حسن العطار قبل السفر ان يسجل ملاحظاته ، ولكن رفاعة هو الذي كتب صورة الحضارة والثقافة الغربية ، ولخصهما ، ونقدهما ، واكتشف موقفهما الحقيقي من « الشرق »

ومن وطنه ، وعرف انهما قد يكونان اداة تصلح لتطوير بلاده ، ولكن من الخطر الاستسلام لهما ، ومن العياء السعي الى استبدال جوهر وطنه بهما .

وتوحي مختارات المعلم الاول للترجمة ، وموضوعاته للتأليف ، انه اكتشف الحاجات الحقيقية لحياه امته ، ولعملها ، اكتشف انها بحاجة الى المعارف العملية وتطبيقاتها ، فاهتم بالرياضة وانهندسة والمعادن والادارة والاقتصاد ، ولكنه اكتشف ايضا حاجتها الى تفيير تصورها عن الكون وعن الكوكب الذي تعيش فيه ، وفي هذا سر اهتمامه الشخصي الخاص بالجغرافيا وبالفلك . ولا شك انه توقف كثيرا عند المفزى الذي تدل عليه الحقيقة التي نعرفها عن اتطابق بين بداية علوم الفلك والجغرافيا الحديثة وبين بداية عصر النهضة والتحرر الفكري في الغرب . فيهدى العلمين حصل الانسان الغربي على « الاحساس » الصحيح بوضع البشر في الكون . . وبشكل هذه الارض التي يقفون فوقها واستبدلوا التصور الخرافي القديم بشعور « ملحمي » يقيني جديد يدفعهم دفعا الى مرحلة جديدة من الصراع ضد الطبيعة ، يشعرون فيه بانهم يواجهون اشياء يمكنهم بالفعل معرفتها والوصول اليها ، واخضاعها لاحتياجات الانسان ، وليسوا امام « مشاعل معلقة في السماء يسكنها الملائكة كما جاء في « نهاية الارب . » وفي تعاليم الكنيسة الكاثوليكية قديما ولا يقفون فوق « اسطوانة مستديرة مسلحاة يقف او تقف فوق ظهر حوت يسبح في بحر الظلمات » . ولا شك ان المعرفة « العلمية » بحقيقة ذلك الوضع والايمان بها يخلقان شعورا مختلفا وحالة عقلية متميزة كل التميز عن الشعور الذي تولده الخرافات الاخيرة .

وهذا الشعور وتلك الحانة العقلية هما ما سعى اليهما المعلم الاول ، لانهما يعنيان « الحرية » والقدرة على الفعل . . النتيجة المحتمة للمعلم ، بدلا من حالة القهر والعجز التي تخلقها التصورات الخرافية .

والى جانب الجغرافيا والفلك ، اهتم المعلم الاول بالتاريخ وبما يمكن ان نسميه « فلسفة التاريخ » او « علم الاجتماع » ، او بنوع من « الانثروبولوجيا » - علم تاريخ العقائد . . فبعد تصحيح احساس الناس بوضعهم في الكون وفي كوكبهم ، اكتشف المعلم الاول حاجة امته الى تصحيح تصورها عن تاريخ المجتمع الانساني نفسه او تاريخ البشر انفسهم على هذا الكوكب ، ثم الى تصحيح تصورها عن تاريخها ، هي بالذات . ولذلك لم يكتف بترجمة وتأليف الكتب التي تقدم « حقائق » ذلك التاريخ وانما اضاف اليها الكتب التي تكشف معنى تلك الحقائق بوصفها ظواهر موضوعية . . تحكمها قوانين لا سيطرة للبشر عليها الا اذا حققوا الوعي بها ، كسائر قوانين العلم التي تتحكم في سائر ظواهر الطبيعة ، وهي الكتب التي تمنح امته التصور الصحيح عن حياة وعقائد

وتصورات الامم الاخرى ، حتى يسود امتسه احساس موضوعي ازاء هؤلاء الاخرين ، ينتج عن المعرفة بحقيقتهم ، بدلا من التصورات الخرافية التي نجدتها ايضا في كتب مؤرخي الالف سنة الماضية وعلمائها .

ونظرة اتي كتاب الطهطاوي عن تاريخ مصر وتاريخ العرب : « انوار توفيق الجليل في تاريخ مصر وتوثيق بني اسماعيل » تكشف ايضا عن رغبته في اقامة تصور المصريين عن تاريخهم على نحو صحيح : انهم اصحاب تلك الحضارة العريقة القديمة التي تطورت حتى التقت بنهر التاريخ العربي فاستوعب احدهما الاخر وصارا نهرا واحدا له « رواقد » بعيدة متعددة الاصول ، وان عليهم ان يعيشوا الوعي بهذا البعد التاريخي لوجودهم « الاجتماعي » حتى يعرفوا انفسهم والمعنى الحقيقي لحضارتهم المعاصرة ، وحتى يعرفوا انهم هم الذين صنعوا تلك الحضارة ، وانهم صنعوها من خلال صراع عظيم ضد عناصر وعوامل القهر الكثيرة .

واخيرا نكتشف اهتمام المعلم الاول باللفة ، سواء عن طريق اثرائها مباشرة بالترجمة ، وحياتها لكي تتمكن من استيعاب تلك العلوم والعارف التي لم تستخدمها ابدا طوال الف سنة ، والتي تطورت وتشعبت بشكل هائل طوال تلك القرون العشرة ، او عن طريق تحديد المصطلحات العلمية الجديدة وتوحيدها عن طريق وضع القواميس الخاصة في نهاية كل كتاب مترجم ، تحديدا للمعاني وتوحيدها لها في اذهان من يستخدمون الاصطلاحات في العمل او في التعليم . وكان المعلم الاول عمليا الى اقصى حد في هذا المجال ، فكان يلجأ الى اللهجة العامية لكي يأخذ منها المصطلح الذي يريده اذا لم تسعفه الفصحى ، فاذا لم يجد في العامية بغيته كتب المصطلح الاوروبي بالحروف العربية كما هو . وكذلك في اسلوب التعبير الذي كان قائما في عصره على ضرورة استخدام المحسنات البديعية من سجع وجناس وتورية .. الخ . . .

لقد اكتشف خطورة ذلك القيد الثقيل على العقلية العربية منذ تعلم الفرنسية في الشهر الاول من اقامته في باريس ، وبدأ منذ ذلك الحين ، في الصفحات الاولى من كتابه الاول « تخلص الابريز » محاولة التخلص من ذلك القيد ، سعيا الى دقة التعبير وتطابقه مع حقائق الاشياء ومع جوهر المعاني التي يريد التعبير عنها .

ان هذا الصراع الكبير من اجل تحرير اللفة ، ومن اجل تحريرها من « التقديس » من اجل اثرائها بالمفردات والمصطلحات واساليب التعبير ، انما تكشف عن ادراكه لان اللفة وعاء للثقافة والحضارة جميعا ، وانه دون اعداد هذا الوعاء ، لكي يكون مستعدا للاتساع والتشكل باشكل ما يحتويه ، فانه لا امل في تطور حقيقي لعقل امته ، وبالتالي لحياتها .

لقد انتهت مفامرات الباشوات الثلاثة ، محمد علي ، ثم سعيد ، ثم اسماعيل ، نهايات تتناقض جوانبها بين

النفع والضرر ، كما تتناقض مع مقدماتها بين الخير والشر ، اما مصر فقد فازت بما صنعه اينواؤها ، وعلى رأسهم معلمها الاول الكبير وما حققوه من معرفة وحرية وبنيان مادي ومعنوي ، حضاري وثقافي تقوم عليه حياتهم الجديدة .

وفي ظني ان هذا البنيان ، وفي جانبه المعنوي الثقافي بالذات ، قد كان في حساب القوى التي كانت تخطط للقضاء على النهضة المصرية لتحويل مصر الى مستعمرة ونقطة حراسة لطرق المواصلات الامبراطورية في نفس العصر الاستعماري . ولا شك ان الاجيال التالية للمعلم الاول ، قد جاهدت لكي تكمل طريقه ، وكان عليها ايضا ان تجاهد ضد ذلك المخطط الذي ارادنا ان نخبط في طريق المعرفة والحرية . ولعلنا نستطيع في اعادة اكتشاف معنى العمل الذي حققه « جدنا الجليل » ان نمود الى طريقه المستقيم .

المعلم الاول :

بطاقة حياة

١٥ اكتوبر ١٨٠١ - يولد في طهطا ، ويتولى ابوه واخواله تعليمه الاول بالعلوم التقليدية وعلى الاسلوب الازهري .

- ١٨١٧ - يأتي الى القاهرة ويلتحق بالازهر .
- ١٨٢٢ - التدريس في الازهر ، وتدعيم علاقته بالشيخ حسن العطار ، اكبر من ادرك اهمية الجانب الحضاري الذي مثلته الحملة الفرنسية والتحدي الكامن في هذا الجانب .

- ١٨٢٤ - يلتحق بالجيش الجديد - اكبر مؤسسات محمد علي - كأمام وواعظ .

- ١٨٢٦ - باريس ، والذهاب اليها اماما لبعثة من ٣٤ طالبا ، نصفهم من اصل مصري ، لدراسة العلوم الفيزيائية والانسانية ، والاجتماعية المختلفة . وطلبه الانضمام الى البعثة كدارس لا مجرد امام وواعظ . وفرار ضمه الى البعثة لدراسة الترجمة .

- ١٩ اكتوبر ١٨٣٠ - الامتحان النهائي في ختام الدراسة ، يقدم للجنة الامتحان نصوص ١٢ كتابا او فصولا من كتب قام بترجمتها خلال سنوات الدراسة الخمس ، تشمل جوانب من علوم التاريخ والتعديس والجغرافيا وعلم الاجتماع والهندسة المدنية وفن القيادة العسكرية والقانون العام وقلسفة القانون والميثولوجيا اليونانية والصحة العامة وتقويم البلدان . . هذا بالاضافة الى المخطوطة الكاملة لكتاب « تخلص الابريز . . » الذي يقدم فيه اكتشافه للحضارة القريبة : تاريخها واصولها ومؤسساتها السياسية والثقافية والاقتصادية والتشريعية والقضائية ، وادبها واصول السلوك والمعادن فيها ،

وحقوق الأفراد . . ووجهة نظره النقدية والموضوعية في كل ذلك .

١٨٣١ - العودة الى الوطن ، وبدء العمل مترجما في مدرسة الطب تحت رئاسة مترجم لبناني ، ثم الاشراف على المدرسة التجهيزية « الثانوية » ويعمل على تطوير مناهج الدراسة في مواد : الحساب والهندسة ، ووصف الكون « الفلك » والتاريخ الطبيعي ، والتاريخ الاجتماعي - القديم - والحديث ، والمنطق .

١٨٣٣ - الانتقال الى « مدرسة الطوبجية » للمدفعية ، والشروع فوراً في اعداد وتنفيذ مشروع اقامة « الجامعة » الاولى في مصر وانشاء « مدرسة التاريخ والجغرافيا » وتدرّس علم الجغرافيا بنفسه ، ثم طلب اعفائه من العمل في مدرسة الطوبجية ، والتخطيط لانشاء « مدرسة اللسان » لتكون النواة الحقيقية للجامعة . وترجمة المجلد الاول من « جغرافية ملطربون » .

١٨٣٥ - افتتاح مدرسة « الترجمة » التي اصبحت مدرسة اللسان « فيما بعد ، وقبول الدفعة الاولى ٢٧ طالبا ، تخرج منهم عشرون والشيخ رفاعه يدرس التاريخ والجغرافيا والمنطق وتاريخ القانون والفلسفة والادب ، والاشراف الفني والاداري ، وتوجيه الطلبة في الدراسة ، واستثمارهم فوراً في الترجمة ، والتركيز على العلوم الانسانية ، وعلى التاريخ والقانون والفلسفة بالذات ويترجم اول كتاب في تاريخ العقائد وعادات الشعوب ، مع بدء جمع الاثار المصرية واستصدار امر صيانتها ومنعها من التهريب والضياع .

١٨٣٧ - يصدر ترجمته لكتاب « قدماء الفلاسفة » .

١٨٣٨ - ترجمة كتاب « تاريخ قدماء المصريين » وترجمة كتاب « المنطق » .

١٨٤٠ - انشاء « مدرسة المحاسبة » لدراسة العلوم الاقتصادية والادارية ، انشاء « مدرسة الادارة الافرنجية » ، للعلوم السياسية والادارية العليا .

١٨٤١ - « عودة قليلة الى الوراثة » انشاء اقسام متخصصة للترجمة : في الرياضيات ، والعلوم الطبيعية الطبيعية ، العلوم الاجتماعية ، الترجمات التركية وقرار التدريس باللغة العربية لكل المواد .

١٨٤٢ - الاشراف على صحيفة الوقائع المصرية ، وبدء اصدارها على اساس ان العربية لفتها الاساسية بدلا من التركية .

١٨٤٣ - اضافة وظائف جديدة ، تفتيش عموم مكاتب الاقاليم ، والاشراف على « الكتبخانة الافرنجية » وعلى عدد من المدارس العسكرية والمدارس الاولى في الاقاليم .

١٠ - نوفمبر ١٨٤٨ - وفاة ابراهيم باشا ابن محمد علي وخليفته في حياته ، ثم وفاة محمد علي نفسه بعد اقل من سنة ، وانفراد الخديو عباس بالحكم .

نوفمبر ١٨٤٩ - عباس يفلق مدرسة اللسان ،

ثم المدرسة التجهيزية بمشورة انجليزية ، ويقصر توزيع « الوقائع » على اصحاب الوظائف الكبرى .

١٨٥٠ - عباس ينفي رفاعه الطهطاوي الى السودان - ترجمة مسرحية - « تليماك » - في السودان ، الكفاح من اجل العودة للوطن .

١٨٥٤ - موت عباس ، وولاية سعيد ، وعودة رفاعه من السودان ، وتعيينه مترجما قسي مجلس محافظة القاهرة وعضوا بالمجلس ، اول مشروعاته « انشاء مكاتب الملة » اي مكاتب الامة ، النشر التعليم بين عامة افراد الشعب ، اي محو الامية ، امية القراءة والكتابة ، وامية الفكر وسعيد يتجاهل المشروع .

١٨٥٥ - تعيينه وكيلا للمدرسة الحربية ، ثم انشاؤه مدرسة اركان الحرب ، ثم يحولها الى مدرسة للتثقيف والتعليم الانساني العام ، بدراسة اللغات الشرقية والاوربية والتاريخ والجغرافيا . الخ التي جانب العلوم التطبيقية الاساسية .

١٨٥٥ - منظوماته الشعرية الوطنية التي دعا فيها الى محو اثار نكسة عباس وبدء النهوض من جديد .

١٨٥٦ - اقناع سعيد بتبني مشروع احياء التراث العربي والاسلامي والبدء بطبوع تفسير الرازي للقرآن ، وخزانة الادب ، ومقامات الحريري .

١٨٦١ - نكسة سعيد ، وقصر رفاعه من العمل حتى وفاة سعيد بعد اغلاق مدرسة اركان الحرب .

١٨٦٣ - وفاة سعيد ولاية اسماعيل ، وعودة رفاعه الى النشاط . الاشراف على « المكاتب الاهلية » ورئاسة مجلسها ، والاشراف على تدريس اللغة العربية ، ورئاسة قلم الترجمة الجديد وترجمة جميع القوانين الفرنسية .

١٨٦٨ - اصدار كتابه « انوار توفيق الجليل في اخبار مصر وتوثيق بني اسماعيل » . اول كتاب مصري علمي عن تاريخ مصر القديمة ، وتاريخ العرب قبل الاسلام .

١٨٦٩ - اصدار كتابه « مناهج الابواب المصرية في مناهج الاداب العصرية لبحث موضوع « التمدن » واصوله واطواره ، مع اصدار كتابه في تبسيط علم النحو وقواعد اللغة العربية .

١٨٧٠ - انشاء مجلة « روضة المدارس » اول مجلة ثقافية وفكرية وادبية في مصر ، واصدار ملاحظتها في شكل كتب كاملة ، في الفلسفة والجغرافيا والصحة العامة وعلم النبات والفلك ، والفقهاء الاسلامي ، والاخلاق ، والتاريخ العربي والاسلامي .

١٨٧٣ - اصدار كتابه « نهاية اليجاز في تاريخ ساكن الحجاز » - عن تاريخ وسيرة الرسول . صدر بعد وفاته في نفس العام : ٢٧ مايو ١٨٧٣ .